اللاهوت اليهودي والقدس

إسرائيل شاحاك

تكتنف المصاعب كل نقاش يتصل بموضوع اليهود ومعتقداتهم الحقيقية. الصعوبة الأولى أن تعبير *يهودي » كما جرى استخدامه خلال المائة وخمسين عاماً الأخيرة ينطوي على معنيين مختلفين.ولم يكن الأمر على هذا القدر من الصعوبة دائماً. فلنستخدم العام ١٧٨٠ على سبيل المقارنة. كان المعنى المقبول من الجميع آنذاك لتعبير * يهودي » يتطابق مع تعريف اليهود لأنفسهم.

ورغم أن الهوية اليهودية في ذلك الزمن كانت دينية في المقام الأوّل، إلا أن اليهود، وكذلك الشعوب التي احتكوا بها، نظروا إلى أنفسهم كأمة. أمة تختلف عن الأمم الأخرى بحكم الدين. وقد تبلور هذا المفهوم لدى اليهود قبل العام ١٧٨٠ بوقت طويل. ففي القول الشائع المنقول عن الحاخام سعاديا هجاءون، حكيم القرن العاشر للميلاد، الذي عاش معظم حياته في العراق * أمتنا أمة بفضل شريعتها الدينية ». شريعة لم تتحكم بكل أوجه الحياة العامة والخاصة لليهود وحسب، بل فرضت انفصالاً صارماً بينهم وبين غير اليهود أيضاً. ولعل تجربة اليهود قبل العام ١٧٨٠ تؤكد قول حكيم القرن العاشر. فلم يكن في مقدور اليهودي مجرد شرب الماء، بالمعنى الحرفي للكلمة، في بيت غير يهودي.

لكن الوضع تغير بعد هذا التاريخ بفضل عمليتين متوازيتين. كانت إحداهما ما يطلق عليه التأريخ اليهودي * انعتاق اليهود » منذ بداياته الخجولة في هولندا وإنكلترا في القرن السابع عشر، حتى نضجه مع الثورة في فرنسا والاستقلال في الولايات المتحدة، ثم في بلدان اقتفت خطاهما، بما فيها ملكيات القرن التاسع عشر.

نال اليهود في سياق الانعتاق قدراً كبيراً من الحقوق الفردية ـ نالوا في بعض الحالات مساواة كاملة في الحقوق ـ لذلك بطلت سلطة الطائفة الدينية على أفرادها. فلو شُوهد أحد اليهود قبل العام ١٧٨٠، مثلاً، يشرب الماء في بيت غير يهودي، كان من حق الطائفة اليهودية، قانونيا، عقاب الشخص المعني. وقد يشمل عقاب * خطيئة » كهذه الجلد أو دفع الغرامة. لكن هذا الوضع أصبح غير قابل للتحقيق في معظم الأماكن في العام ١٨٨٠.

العملية الثانية قرينة بالأولى ونتيجة طبيعية من نتائجها. فقد أتيح لبعض اليهود * المعتوقين » الخارجين من نير الحكم الاستبدادي لحاخاماتهم، أن يعلنوا تخليهم بدرجات متفاوتة عن جانب من ميراثهم اليهودي، واعتناق آراء حديثة. لم يحدث هذا الأمر تغيرات عميقة ليس في سلوكهم وحسب، بل وفي مواقفهم أيضاً. ولعل أبرز الحالات الصارخة تتمثل في اليهود الذين بقوا يهود بمعنى عدم اعتناق ديانة أخرى، لكنهم فقدوا الاهتمام بأي من المسائل اليهودية.

ومع ذلك، حتى في حال تجاهلنا للفئة الأخيرة، وهذا ما سأفعله، فإن تعبير * يهودي » ينطبق في الوقت الحاضر على نوعين من الناس، لا وجود بينهما لكثير من القواسم المشتركة، خاصة ما يتعلق بالقواسم * اليهودية » بما فيها القدس واليهود.

ثمة تنافر واختلاف شديد الحدة بين الجانبين. لذلك، لا وجود لخصائص * مشتركة تجمع اليهود»، ولا وجود لرأي * يهودي » مشترك حول أمر محدد، ولعل المشترك يتناقص إلى أدنى الحدود إذا كانت القدس موضوع الخلاف.

وبما أنني مطل على الوضع في إسرائيل، وعلى موقف اليهود الإسرائيليين من القدس، وما لهذا الموقف من أهمية سياسية خاصة، سأكتفي بعرض مواقف مختلفة تجاه مسألة القدس، تعتنقها شرائح مختلفة في المجتمع اليهودي الإسرائيلي، وأشير إلى جذورها في الماضي اليهودي.

الرأي السائد لدى علماء الاجتماع وخبراء استطلاعات الرأي العام أن المجتمع اليهودي الإسرائيلي مقسوم إلى شريحتين متساويتين، تقريباً، في الحجم. وما يميز شريحة عن أخرى يتمثل في الموقف من الديانة اليهودية، مدى التقيد بتعاليمها، ومدى تأثيرها على المسائل السياسية. وهذا العامل بالذات أكثر العوامل حسماً في انتساب الفرد إلى إحدى شريحتين تسميهما التعبيرات الإسرائيلية الدراجة *إسرائيل أ » و * إسرائيل ب ».

تتكون إحدى الشريحيتين، من حيث العلامات السياسية الفارقة، من الليكود، وأحزاب يمينية أخرى، إضافة إلى مختلف الأحزاب الدينية. وتتكون الثانية من حزب العمل، ومختلف الأحزاب اليسارية. تؤيد إحداهما استمرارية التقاليد الدينية اليهودية كلياً أو جزئياً في أغلب الأحيان، بينما تُعدّل الثانية منطلقاتها حسب منطق الأزمنة الحديثة.

أريد الاستشهاد، في هذا الصدد، بمعطيات وردت في مقالة لباروخ كيمرلنغ، أحد علماء الاجتماع المشهورين في إسرائيل (زمانيم، رقم ٥٠ ـ ٥١ خريف ١٩٩٤) وتجدر ملاحظة

ما ينطوي عليه العنوان من دلالات، فهي معنونة باسم * الدين، والقومية، والديمقراطية في إسرائيل ».

يُظهر كيمرلنغ بطريقة حاسمة ـ بعد الاستشهاد بعديد من الأبحاث ـ أن المجتمع اليهودي الإسرائيلي مقسوم حول الموضوعات الدينية أكثر بكثير مما يعتقد الناس في الخارج، حيث لا تمكن الدوافع السياسية أحداً خارج إسرائيل من التشكيك في وجود مزاج * مشترك بين اليهود » مع ما يستدعيه هذا الأمر من تعميمات.

يستشهد كيمرلنغ، مثلاً، بنتائج مسح أجراه معهد غوتمان المرموق في الجامعة العبرية في القدس، حيث صرّح ١٩ بالمائة من اليهود الإسرائيليين أنهم يؤدون الصلاة يومياً، بينما أعلن ١٩ بالمائة رفضهم دخول كنيس مهما كانت الظروف (أضيفُ، هنا، أن أولئك اليهود يرفضون دخول الكنيس من حيث المبدأ احتجاجا على الديانة الأرثذوكسية اليهودية، وهي ظاهرة غير معروفة في الطوائف اليهودية غير الإسرائيلية، و يمكن مقارنتها مع موقف بعض المسيحيين الراديكاليين تجاه الكنائس المسيحية، في فرنسا، مثلاً).

يستخلص كيمرلنغ من هذه المعطيات ومعطيات مشابهة أن في كلتا الشريحتين المذكورتين سابقاً نواة صلبة من أشخاص يعتنقون أفكاراً تتناقض مع معتقدات أقرانهم في الشريحة الأخرى. وأتفق معه تمام الاتفاق.

فلنقترب الآن من القدس. ستكون البداية مع مواقف اليهود المتدينين في إسرائيل، المواقف التي يمكن العثور على جذورها في ما أسميه * اليهودية الكلاسيكية »، أي اليهودية التي اعتنقها المجتمع اليهودي برمته منذ بداية القرن الأوّل للميلاد تقريباً وحتى نهاية القرن الثامن عشر. اليهودية التي ما زالت تمارس النفوذ على نصف المجتمع اليهودي الإسرائيلي. ولن أشير، في هذا الصدد، إلى التوراة، أو إلى اليهودية في الأزمنة التوراتية، لأن * اليهودية الكلاسيكية » تشكلت في وقت لاحق بفعل التلمود.

يمكن العثور على النفوذ التوراتي، الذي أحياه يهود تمردوا على * اليهودية الكلاسيكية »، لدى يهود قبلوا النظرة الحديثة إلى الحياة، ويمكن لمسه بصفة خاصة في تلك النواة الصلبة من اليهود الإسرائيليين، التي يرفض أفرادها دخول الكنس مهما كانت الظروف. تلك هي الفئة الوحيدة من اليهود التي اعتادت الاستشهاد بنصائح وتحذيرات أنبياء التوراة حول العدل والرحمة في سياق كلامها عن معاملة إسرائيل للفلسطينيين.

ولن أشير، أيضاً، إلى ما يسمى * التراث اليهودي ـ المسيحي » المشابه حسب اعتقادي لطريقة ستالين الملفقة في نحت تعبير * الماركسية ـ اللينينية ». ولن أتعاطى، أيضاً، مع تعبيرات شائعة من نوع * التراث الإبراهيمي » الذي لا يعني شيئاً من وجهة نظري.

يتضح تمام الوضوح لكل مطلع على ما انتجته * اليهودية الكلاسيكية » من أدب على مر العصور، أن القدس تتجلى أولاً وقبل كل شئ في هذا الأدب، باعتبارها البلدة التي شيّد فيها الهيكل. كان الهيكل، بل طقس تقديم القرابين في الهيكل، الشيء الذي استنفر أعمق المشاعر

اليهودية، مقروناً بالحزن ومذكوراً في الصلوات اليومية والعديد من المناحات الخاصة التي جرى تأليفها منذ دماره على يد الرومان عام ٧٠ للميلاد.

وبالمقارنة مع المجلدات الضخمة التي أنتجتها * اليهودية الكلاسيكية » في نقاشها التفصيلي الدقيق لمسألة الهيكل وقرابين الحيوانات، فإن ما أنتجته من أدب حول مدينة القدس يتسم بضآلة شديدة. الهيكل وقرابينه هو ما يرد ذكره دائما في الصلوات اليهودية. وعندما يستشهد صانعو الدعاية الصهيونية وأنواع أخرى من الدعاية اليهودية بتلك الصلوات، تكون المقتطفات بعيدة عن محتواها الأصلي بُعد مقتطفات ستالين عن نصوص ماركس الأصلية.هذا التزييف ممكن لأن معظم المسيحيين والمسلمين (واليهود غير الناطقين بالعبرية) يجهلون اليهودية، سواء كانت كلاسيكية أو حديثة.

فعلى سبيل المثال، عبارة * العام القادم في القدس » التي يطلقها اليهود، ويكثر التذكير بها، تعتبر في الواقع جزءاً من طقس في عشية عيد الفصح، الذي ما زال عديد من العلمانيين اليهود يحتفلون به على الطريقة القديمة. ولكن في أي سياق تظهر العبارة في الطقس المذكور ؟

تسبقها صلاة مهيبة تطلب من الرب إحياء تقديم قرابين الحيوانات في الهيكل في أقرب الآجال. ففي ذلك الوقت السعيد ـ تقول الصلاة ـ * سيفرح اليهود لمرأى سفك دم الكبش على جانب مذبح [الهيكل] لإدخال السرور إلى نفسك، يا إلهنا »، بعدها تأتي عبارة * العام القادم في القدس » التي تعقبها قصيدة عن انتظار التضحية الفعلية بكبش آخر عشية احتفال الفصح في العام القادم. من الواضح أن المعنى الأصلي ـ وما زال عديد من اليهود يعتنقونه ـ لعبارة العام القادم في القدس يفيد *العام القادم سيسفك دم كبش على جانب مذبح في هيكل أعيد بناؤه ».

نأخذ صلاة أخرى، تقال ثلاث مرات يومياً في التبريكات الثماني عشر (١٩ في الواقع) التي تضم مقطعاً يكثر الاستشهاد به * ودع أعيننا ترى عندما تعود إلى صهيون ». فلنبحث مرة أخرى في أي سياق يُطلب من الرب تحقيق تلك الرغبة. فهذا الطلب مسبوق بمقطع لا يُطلب فيه من الرب قبول الصلوات الحالية لليهود وحسب، بل و* قرابينهم المحترقة » في المستقبل أيضاً، بعد الطلب يأتي المقطع المذكور حول عودة الرب إلى صهيون (عبارة تعني * الهيكل » حسب * اليهودية الكلاسيكية») ثم يواصل المقطع نفسه : * هناك سنعطيك القرابين المفروضة علينا ». لكن الأدب الصهيوني لا يستشهد بهذه الخاتمة الحاسمة للمقطع المذكور.

ومع ذلك، ربما تجلى أفضل تمثيل لكيفية ربط * اليهودية الكلاسيكية » للهيكل بطقوس ما كان يقدم فيه من قرابين، وأمل إحياء هذا النوع من العبادة، في يوم الغفران، أكثر الطقوس السنوية قداسة في نظر * اليهودية الكلاسيكية ». ففي * الصلاة الإضافية » (موساف) من ظهيرة ذلك اليوم، يقوم المصلون عبر تراتيل وصلوات أخرى ـ ما زالت تؤدى في أيامنا

هذه ـ بتقليد كيف قدّم الكاهن الأكبر القرابين وأجرى مراسم أخرى عندما كان الهيكل قيد الوجود. ورغم أن مقاطع شعرية من * نظام عمل الكاهن الأكبر في الهيكل يوم الغفران »، ما زالت موجودة بصيغ عديدة لدى طوائف يهودية مختلفة (المقاطع التلمودية نفسها) سأستشهد بالصيغة المستخدمة من جانب اليهود الاشكناز.

بعد تلخيص شعري لتاريخ العالم منذ بداية الخلق وأقدم تواريخ اليهود، يصل النشيد إلى طقوس الهيكل. ينشد المصلون بعد وصف الليلة التي قضاها الكاهن الأكبر ساهرا: * فرح الذين شاء قدرهم أن يزيحوا الرماد عن المذبح،.. وحالما أعلن الحارس بزوغ نجمة الصبح وضعوا قماشاً ناعماً من الكتان لحجب الكاهن الأكبر عن أعين الناس، خلع الكاهن كسوته الكتانية، اغتسل، وارتدي كسوته الذهبية، نحر قربان الصبح اليومي المعد للحرق (قربان يقدم يومياً) وأمر (كاهناً) بإكمال المهمة، أخذ الدم ورشه وصب قربان الشراب (من النبيذ) ثم وضعوا ستارة أمامه كما في المرة الأولى، فغسل يديه وقدميه وخلع كسوته الذهبية، ذهب واغتسل وارتدى كسوة بيضاء، يساوي ثمنها ١٨ طالن [الطالن وحدة نقدية قديمة] كسوة جميلة يخدم فيها ملك المجد ».

من هذه النقطة تبدأ الصلاة الخاصة بيوم الغفران، حيث اعتاد الكاهن الأكبر التضحية بثور تكفيراً عن خطايا الكهنة، والتضحية بكبش تكفيراً عن خطايا الشعب (للتدليل على دونيتهم) وحيوانات أخرى أيضاً. * ثم اقترب [الكاهن الأكبر] من ثوره الخاص، الواقف بين الشرفة والمذبح بحيث يكون جسده متجها إلى الغرب وتكون رأسه مثنية في اتجاه الجنوب. وضع الكاهن يده فوق رأس الثور واعترف بخطاياه ».

يتواصل نص الاعتراف، بادئاً بالكلمات التالية * رضاك، أيها الاسم ». عندما كان الهيكل قيد الوجود، كانت تلك هي اللحظة التي يتفوه فيها الكاهن بالاسم الحقيقي للرب، بدلاً من كلمة * يا إلهي » (أدوناي) المستخدمة في الأحوال العادية. يتم تخليدا لتلك المناسبة، إنشاد أحد المقاطع التلمودية » وعندما سمع الكهنة والناس في الفناء الاسم الذي لا يجرؤ أحد على نطقه، الاسم المروّع، منطوقا على لسان الكاهن الأكبر بقداسة وطهر، ركعوا، وخرّوا على الأرض قائلين * فليتبارك اسم الجلالة المجيد إلى أبد الآبدين ».

ما زالت هذه العادة متبعة لدى اليهود في الوقت الحاضر، حيث يركع المصلون ويخرّون على وجوههم (يكاد هذا الفعل يكون فريداً في العبادة اليهودية) تخليداً لما جرى في الهيكل.

ثم يتواصل النشيد لوصف تقديم الكاهن الأكبر لكبشين، يقدم الأوّل قرباناً للرب، والثاني هبة إلى شيطان يُدعى عزازيل، يتم رميه من فوق صخرة في الصحراء. بعد الانتهاء من هذه الأعمال *يقترب الكاهن الأكبر مرة أخرى من ثوره » ويعترف مجدداً، متفوها بالاسم الحقيقي للرب، وفي الحال يرتلون نشيد * الكهنة .. والشعب » بينما تركع جماعة المصلين، الذين خرّوا على وجوههم مرة أخرى. ويتواصل النشيد * ثم تناول [الكاهن الأكبر] سكيناً حادة النصل، نحر الثور حسب العادة، تلقى دمه في وعاء، وأعطاه [لكاهن آخر] حرّكه كي

لا يتخثر قبل رشه، فلو تخثر لما تمكن من رشه، ولحال دون عفو [الرب] في الأثناء يضع الكاهن الأكبر فحما مشتعلا في وعاء، يضع عليه البخور، يدخل قدس الأقداس في الهيكل، ويضع المبخرة هناك » ثم يخرج يتناول الدم من الشخص الذي حرّكه ويدخل مسرعاً مرّة أخرى، يغمس أصابعه في الدم، يكفر عن الخطايا برش الهيكل مرة إلى أعلى وسبع مرات إلى أسفل .

توصف العملية نفسها من جديد ولكن باستخدام كبش هذه المرة، ثم يتكرر رش دم الثور، ويليه رش دم الكبش. وأخيرا، يقوم الكاهن الأكبر ❋ بمزج دم الثور والكبش، ويطهر المذبح الذهبي، يرشه سبع مرات في الوسط، وأربع مرات على جوانبه. وعلى الفور يقترب مسرعاً من الكبش الحي، ليعترف أمام الله بخطايا الشعب ». بعد إنشاد الاعتراف الثالث يأتي مقطع ❋الكهنة والشعب..» بينما يركع المصلون ويخرون على وجوههم.

يصف النشيد، بعد مزيد من الطقوس، كيف أمسك الكاهن الأكبر ❋ سكيناً حادة النصل، وقطّع الثور والكبش، كيف مزقهما إربا، فأخرج الأحشاء، وعلّق اللحم على خطافات تحضيراً لحرقه. يقرأ النص الديني المخصص لذلك اليوم، يغسل يديه وقدميه، يخلع كسوة الكتان، يستحم للمرة الثالثة، ويرتدي الكسوة الذهبية، يغسل يديه وقدميه، لينحر على عجل كبشه الخاص، وكبش الشعب، ويقدم قربان الدهن والقرابين الأخرى تكفيراً عن الخطايا، حسب الشريعة ».

حذفت الكثير من الطقوس الإضافية، لكنها تنتهي بتلخيص لقيام الكاهن الأكبر ❋ بغسل يديه وقدميه عشر مرات » بعدها يتواصل النشيد:❋ أوصلت الأمة الكاملة الرسول الأمين إلى بيته..أسقطت السماوات الندى على الأرض، سُقيت أثلام الأرض وأعطت غلة جيدة.. والأمة أصبحت طاهرة ونظيفة تماماً، مثل (الملائكة) التي تتجدد طهارتها صباح كل يوم.. سعداء من كانوا هكذا، وسعيد هو الشعب الذي يكون الرب إلهه ».

ينتهي عند هذا الحد النشيد، الذي ربما وّضع في القرن السابع للميلاد، وما زال اليهود ينشدونه حتى الآن بأكبر قدر يمكن تصوّره من المشاعر الدينية، كما يعرف العالمون بالطقوس اليهودية. تأتي بعد النشيد سلسلة أناشيد أخرى، سأذكر واحداً منها، فقط، يمتدح مرأى الكاهن الأكبر في نهاية تقديم قرابين يوم الغفران المذكورة سابقا.

يقول قائد جوقة المرتلين : ❋ ساطع كما قبة السماء » يرد المصلون : ❋ كان مرأى الكاهن ». قائد الجوقة : ❋ كما نجمة الصبح على الحدود الشرقية » يرد المصلون ❋ كان مرأى الكاهن ». بعدها تأتي مجموعة بكائيات توجع القلب (❋ سعيدة العين التي رأت، لكن سماع ذلك يحزن أرواحنا ») وكذلك أمنيات أن يؤدي إنشاد قصة القرابين إلى تأثير مشابه للقرابين نفسها (❋ لعل إنشاد تلك الأشياء يجلب العفو ») لأن الرب يعرف ❋ غياب كاهننا الأكبر مقدم القرابين، وغياب المذبح الذي تُقدم عليه قرابين محترقة ».

ثمة صلاة خاصة مكرّسة لتعداد جميع الأوعية المقدسة، وطقوس المعبد التي لم تعد قائمة

في عالم اليوم. أما الصلوات الأخيرة فتعزو متاعب اليهود في الزمن الحاضر إلى فقدان الهيكل، الذي دُمر بسبب خطايا الشعب، وتسأل الرب أن يعيده بسرعة.

اوردتُ، مطولا، أجزاء من طقوس دينية لم تمارس على مدار مئات من السنوات وحسب، ولكنها ما زالت قائمة في يومنا هذا في عدد يصعب حصره من الكنُس أيضاً. ولا أعتقد في الوقت نفسه أن الكلام الكثير حالياً عن خصائص يهودية يُقال بأنها لفائدة غير اليهود، يصف ما وصفت استناداً إلى كتاب عادي للصلوات مخصص ليوم الغفران، ومُترجم إلى لغات كثيرة. فهم يصفون يوم الغفران وصلواته بطريقة تخدم الدعاية اليهودية. وكما قارنت، من قبل، طريقة استخدام الصلوات اليهودية من جانب خبراء الدعاية بطريقة ستالين عند استشهاده بماركس. أضيف: أن معظم، إن لم نقل كل، الكلام الحالي عن اليهودية (بما فيها موقفها من القدس) الكلام الذي يستهدف إظهار موقفها الإيجابي من غير اليهود، يشبه ما أطلقه المسافرون إلى الاتحاد السوفياتي من أوصاف عنه في عهد ستالين.

من نافلة القول، التذكير أن لا أحد من العلمانيين، أو حتى من اليهود التقليديين، يرغب في رؤية القرابين مرة أخرى في هيكل يُعاد بناؤه من جديد. ويصعب العثور بين الساسة العلمانيين الصهاينة من وايزمن حتى بن غوريون، مروراً ببيغن ورابين وبيرس ونتنياهو، على شخص يتطلع إلى مشهد دم الكبش المسفوح على جانب المذبح في هيكل يهودي، أو يرغب حتى في مشاهدة الكاهن الأكبر على شاشة التلفزيون، وقد غمس اصبعه في دم ضحية طازجة لرش الهيكل.

وربما جاز لنا افتراض خشيتهم، في الواقع، من حدوث شئ كهذا. فما يريدونه يتمثل في المضاربة بالمشاعر الحقيقية للمتدينين اليهود (أو نوستالجيا بعض اليهود العصريين) خدمة لأهدافهم الخاصة، أوخلق انطباع قوي لدى غير اليهود من خلال الاستشهاد بمقاطع مجتزأة من سياقها اليهودي التاريخي. فسياستهم تجاه القدس لم تقم على اعتبارات متجذرة في الماضي اليهودي أو في الديانة اليهودية.

بالقدر نفسه، قام المتدينون اليهود بالحج الى القدس، وسكنوا فيها في عملية تواصلت منذ دمار الهيكل، انطلاقا من تعلقهم العميق بموقع الهيكل المدمر، ورغبتهم في رؤيته مبنيا من جديد. عندما يرى يهودي ورع جبل الهيكل (الحرم الشريف) للمرة الأولى يُحدث ثقبا صغيرا في قميصه أو معطفه، علامة على الحداد. وهذا طقس يمارسه في جنازة الأقربين من عائلته أيضاً. وقد اعتاد اليهودي الورع الذهاب إما إلى أكثر الأماكن قربا من موقع الهيكل، أو إلى مكان يطل عليه ويسمح برؤيته من بعيد. والواقع أن وظيفة حائط المبكى كمكان قريب من الهيكل حديثة العهد من ناحية تاريخية. فعلى مدار قرون كان جبل الزيتون المكان الذي اعتبره اليهود الأكثر قداسة في منطقة القدس، لأنه يمنحهم إطلالة جيدة على موقع الهيكل. أما قداسة حائط المبكى فترجع إلى نهاية القرن الخامس عشر، عندما كانت الأوضاع الأمنية خارج أسوار القدس غير مستقرة، وكانت زيارة جبل الزيتون غير آمنة حتى في أوقات

النهار.

وقد جرى تعميم قداسة حائط المبكى وتعزيزها في مختلف أماكن عيش اليهود في القرنين السادس عشر والسابع عشر من جانب الصوفية اليهودية (القبالاه) التي هيمنت في ذلك الزمن على الديانة والثقافة اليهوديتين. كما لعبت فكرة غير معروفة في اليهودية من قبل دوراً كبيرا في تعزيز قداسة حائط المبكى. فكرة ابتكرتها القبالاه ومفادها أن الرب يستجيب للصلاة في مكان مقدس أسرع وأضمن من استجابته للصلاة في مكان آخر. وسرعان ما جرى توسيع هذه الفكرة لتشمل صلوات مكتوبة يضعها الناس بين حجارة الحائط، وقد أصبحت شائعة جداً منذ عام ١٩٦٧.

ومع ذلك ينبغي التذكير أن هذا التعلّق العميق بموقع الهيكل كان مصحوبا بأمر صارم يحظر على اليهود زيارة الموقع نفسه. لفهم هذا الأمر، ينبغي تقديم بعض المعلومات عن الديانة اليهودية في فترة ما قبل العام ٧٠ للميلاد، عندما كان الهيكل قيد الوجود. تضمنت اليهودية، آنذاك، قواعد مفصلة جداً للطهارة والدنس (وردت بصورة عابرة في الأناجيل). فلا يستطيع دخول الفناء الداخلي للهيكل، حيث يجري تقديم القرابين، ورؤية جثث الحيوانات المحروقة على المذبح، سوى يهودي يتمتع بالطهارة حسب الطقوس.

كان الهيكل نفسه مجرد بناء صغير تحيط به ردهات واسعة. ولا يُسمح بدخول البناء إلا لكهنة يهود في حالة طهر كامل، فقد اعتبروا دخول يهودي نجس إلى الردهات الداخلية للهيكل، أو مشاركة كاهن نجس في الطقوس خطيئة مروعة ونوعا من الدنس. يصبح اليهودي نجساً بطرق مختلفة، لكن أبرزها (وأكثرها قدرة على التلويث، إذا استخدمنا تعبيرات حديثة) هي الاحتكاك بطريقة ما ـ مهما كانت هامشية ـ بجثة يهودية، أو حتى قطعة عظم يهودية ـ مهما كانت صغيرة، وبقطع النظر عن تاريخها. (ينص التلمود بالمصادفة أن جثة اليهودي وحدها تسبب النجاسة أما جثث غير اليهود فلا تفعل ذلك). فإذا وجد يهودي نفسه في مقبرة يهودية، أو في بيت مات فيه يهودي آخر، فإن جميع اليهود الذين يلمسهم حتى بطرف اصبعه الصغير يصبحون مدنسين.

يمكن تطهير اليهود المدنسين. لكن هذا الأمر يحتاج إلى طقوس معقدة تستمر سبعة أيام. ويكفي في هذا السياق أن نذكر ما يجري في اليومين الثالث والسابع. فاليهودي الذي ما زال نجساً يحتاج إلى تطهير على يد كاهن طاهر يرش عليه ماءا يحتوى ذرة صغيرة من رماد عجلة حمراء (أنظر سفر العدد، الفصل ١٩). كان يجري تقديم عجلة حمراء على جبل الزيتون كقربان من وقت إلى آخر، شريطة أن يكون الكاهن طاهرا. كان الشرط أن تكون العجلة حمراء بلا شائبة، فالعثور على شعرتين غير حمراوين يكفي لاعتبارها غير صالحة كقربان. وبما أن الطهارة لم تكن مقتصرة على دخول ردهات الهيكل وحسب، بل وللقيام بكثير من أعمال العبادة اليهودية أيضاً، حرص كثير من اليهود آنذاك على إبقاء أنفسهم في حالة طهر لإرضاء الرب (كانوا يحتقرون من يبقى نجساً ولا يتطهر إلا في مناسبات تستدعي

ذلك، تذكر الأناجيل كيف لاموا يسوع عندما أكل مع أشخاص غير طاهرين).

كان يجري توزيع مقادير من رماد العجلة الحمراء، في أوقات منتظمة، في مناطق سكنى اليهود في فلسطين لتمكينهم من إعادة تطهير أنفسهم. ولدينا ما يثبت أن بعض رماد من بقايا عجلة حمراء كان موجودا في الجليل حتى القرن السادس للميلاد، وأن بعض الكهنة تمكنوا من إبقاء أنفسهم في حالة طهر حتى ذلك التاريخ على أمل بناء الهيكل مرة أخرى في وقت قريب.

ولكن، يجد جميع اليهود أنفسهم منذ ذلك التاريخ في حالة دنس، فالأمر الديني لا يمنعهم من دخول موقع الفناء الداخلي للهيكل وحسب، بل ومن إعادة بناء الهيكل، الذي يستدعي الطهارة أيضاً. أود الإضافة، هنا، أنه يحظر على غير اليهود ـ وهم غير طاهرين في نظر * اليهودية الكلاسيكية» ولا يمكن أن يصبحوا طاهرين أبداً ـ دخول الردهات الداخلية للهيكل. وقد صادقت الحكومة الرومانية، حتى الثورة الكبرى عام ٦٦–٧٠ للميلاد، على ذلك الحظر، كما يتضح في نقش ذائع الصيت باللغة اليونانية، يهدد غير اليهودي بالموت في حال دخوله إلى الردهات الداخلية للهيكل.

ويحظر في الأزمنة الحديثة، حسب بيان رئاسة الحاخامية (في صيغته العبرية على الأقل) على اليهود وغير اليهود دخول جبل الهيكل. أما اليهود الذين يزورون جبل الهيكل سواء جاءوا من إسرائيل أو من بلدان أخرى، فهم كما ذكرت في مقدمة هذه المقالة الذين تمردوا على * اليهودية الكلاسيكية ». من ناحية أخرى، يرغب الحاخامات اليهود الإسرائيليون والأحزاب الدينية في إغلاق جبل الهيكل في وجه الجميع، وينطبق هذا الأمر على المسلمين في المسجد الأقصى، لأن دخولهم ينتهك حرمة المكان، بقدر ما ينتهكه دخول الكافرين اليهود.

تتواصل هذه الزيارات التي تدنس المكان ويجري تشجيعها لأن جميع الحكومات الإسرائيلية حتى الآن علمانية. وما يثير الاهتمام أن المنظمة السرية اليهودية التي خططت لنسف المسجد في جبل الهيكل (الحرم الشريف) حاولت ذلك بعد حصولها على فتوى حاخامية تجيز ليهود نجسين الدخول مرة واحدة، لفترة قصيرة، إلى المكان المقدس تحقيقا لهدف مقدس ، فهذا العمل أفضل من تركه عرضة للتدنيس فترة طويلة.

يتضح مما تقدم أن الجماعات الصغيرة من اليهود الراغبين في إعادة بناء الهيكل ـ أو المذبح الكبير فقط، كما يفكر بعضهم ـ أو من يدخلون جبل الهيكل للصلاة، يمكن وصفهم بالمهرطقين اليهود. معظمهم من الجهلة والمسوخ المرفوضين من جانب عديد من اليهود العلمانيين المتدينين حقا. أما المبالغة في أهميتهم فتنشأ بفعل أجهزة الإعلام التي تستعرض سلوكهم الغريب، كما تنشأ من جهل رجال الدين المسلمين (الذين يعانون من حساسية بالغة تجاه تلك المحاولات) بحقيقة الديانة اليهودية.

ومع ذلك، لا ينجم دنس اليهود المتدينين عن غياب رماد العجلة الحمراء فقط، فقد تم العثور

في مختلف الأماكن من العالم على أبقار حمراء وجلبها إلى إسرائيل، والعناية بها على أمل استخدامها في أسرع وقت ممكن.

ولكن ثمة لعبة دائرية هنا. فكما أسلفنا القول، يجب أن يكون الكاهن الذي يقدم القربان طاهرا، وإلا فقد القربان قيمته. وبما أن جميع اليهود، بما فيهم الكهنة، غير طاهرين منذ ١٤٠٠ سنة على الأقل، وبما ان حياتهم اليومية تزيد من نجاستهم، لا يمكن العثور على كاهن طاهر يقدم قربان العجلة الحمراء. ويُعتقد أن إحدى مهام المسيّا [المُخلّص] تتمثل في العثور على، وربما إحضار رماد العجلة الحمراء القديمة من السماء، وبالتالي تدشين عملية التطهير. ولكن في حال غياب المسيّا لا يمكن القيام بشئ.

ربما * يجد » بعض أنصار غوش إيمونيم وعاء قديما يضم نفايات ويعلنون أن الوعاء يحتوي رماد العجلة الحمراء. ولكن من المؤكد أن غالبية الحاخامات ستدين هذا * الاكتشاف » وتعتبره بلا معنى.

ومع ذلك، يمكن لمشاعر اليهود المتدينين تجاه الهيكل وموقعه أن تكون في أغلب الأحيان، وليس في جميعها، ذات تجليات سياسية. يمكن تقسيم اليهود المتدينين في إسرائيل إلى فئتين: فئة تؤيد أو تتعاطف مع الأحزاب القومية الدينية، وتدعى * ميسيائية »، وفئة تسمى حريديم (الذين يخشون الله) التي يتسم اتباع أفرادها لتعليم * اليهودية الكلاسيكية » بقدر أكبر من التشدد.

الانقسام بين الجانبين عميق: لكل فئة مدارسها الخاصة، ونظام قواعدها الدينية الخاصة. ثمة فرق لاهوتي هام بين الجانبين، يعتقد * الميسيائيون » بقرب قدوم المسيّا، وبتبدّل * طبيعة الأزمنة » مع دخول العالم كله في عهد جديد * لبداية الخلاص ». مهمة اليهود في هذا العهد هي تحضير أفضل الشروط للمسّيا القادم قريبا: مصادرة أراضي العرب في القدس ـ إذا اقتصرنا على ذكر مثل واحد فقط ـ كما أن لطرق الضغط المختلفة على الفلسطينيين هدفا لاهوتيا. من المفضل (حسب الشريعة اليهودية، الهالاخاه) ألا يقيم غير اليهود في القدس، وإن كان يُسمح لهم بزيارتها.

إضافة إلى ذلك، لا يجب السماح بوجود ديانة أخرى غير اليهودية في القدس، كما كان الشأن قبل العام ٧٠ للميلاد (يُذكر قرّاء يوسيفوس فلافيوس أن اليهود آمنوا بتلك المنطلقات في القرون الأخيرة لوجود الهيكل) أي يعتقد الميسيائيون أنه كلما قل عدد غير اليهود في القدس كلما ازداد الرب سرورا وتسارعت * بداية الخلاص » لتتحوّل إلى * خلاص » كامل.

يرفض الحريديم من جانبهم هذه التصوّرات اللاهوتية. فلم تتغير الأزمنة من وجهة نظرهم. أما الهدف الوحيد لسياسة إسرائيل، فينبغي أن يكون رفاهية اليهود (وليس رفاهية المواطنين غير اليهود، بطبيعة الحال) مصادرة الأرض في القدس مسموحة إذا خدمت هذا الغرض، أما إذا أسفرت عن احتجاج عنيف فيجب الكف عنها. بهذا المعنى، يعاني الميسيائيون من العزلة حتى في اوساط اليهود المتدينين. ولم يكن في مقدورهم تحقيق شئ، سواء في

موضوع القدس أو غيره، دون معونة حلفائهم من اليهود العلمانيين الإسرائيليين.

لهذا السبب سأتناول الآن هذه الشريحة من المجتمع اليهودي الإسرائيلي من زاوية موقفها من القدس. نبدأ بالمعروف وغير المعروف عن القدس لدى اليهود الإسرائيليين، الذين تلقوا تعليما علمانياً، وقضوا حياتهم في أوساط اجتماعية علمانية. يتسم التعليم اليهودي في إسرائيل (ناهيك عن الدياسبورا حيث الوضع أسوأ بكثير) بالشوفينية. وتتجلى شوفينيته بالدرجة الأولى في تجاهل أو تقليص دور غير اليهود الذين عاشوا في فلسطين، أو لعبوا دوراً في تاريخها. تقوم أجهزة الإعلام الشعبية بتعزيز هذه الفكرة، التي طبعها التعليم في أذهان الناس، بقدر ما تستطيع.

فعلى سبيل المثال، تعلّمت الغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين في المدارس اليهودية، وآمنت ـ خلافاً للحقائق الأركيولوجية والتاريخية ـ أن فلسطين ازدهرت، فقط، عندما حكمها أو سكنها اليهود. تنطبق هذه الأسطورة الضارة على القدس أيضاً، حيث يتم إما تجاهل تاريخها الطويل قبل فتحها على يد الملك داود (حوالي العام ١٠٠٠ قبل الميلاد، التاريخ الدقيق غير معروف بشكل محدد) أو المرور عليه مرور الكرام.

أما تاريخ الفترة من العام ١٠٠٠ قبل الميلاد وما تلاه ـ منذ بداية الفتح وحتى دمار القدس والهيكل عام ٧٠ للميلاد ـ عندما خضعت القدس للإسرائيليين القدماء، وكانت مدينة يهودية، فيجري تعليمه بأدق التفاصيل. لذلك، يتسم تاريخ المدينة في مناهج المدارس اليهودية الإسرائيلية، وفي النقاش العام، بدرجة عالية جداً من الانتقائية: يرد فيه ما يتصل باليهود، وإذا كانوا لا يستطيعون تجاهل وجود غير اليهود، أو وجود حكام للقدس خلال تلك الفترة الطويلة، فهم يتناولونه من زاوية موقف أولئك الحكام من اليهود، وليس كموضوع مستقل.

يعتبر هذا الافتراض صيغة معلمنة لفكرة يمكن العثور عليها في الشعر الديني العبري المكتوب على مدار قرون، الشعر الذي وصف القدس دائما باعتبارها « مدمرة » أو « مهانة » بينما كانت في الواقع مزدهرة ومحط تشريف كبير، ولكن لدى غير اليهود.

يمكن التدليل على هذا الأمر من خلال نشيد كتبه الحاخام الحكيم غيرشون ميئور هجالوت (نور الدياسبورا) الذي عاش في ألمانيا الغربية في القرن العاشر للميلاد، ويعتبر حتى الوقت الحاضر من المراجع الدينية الهامة (فهو الذي حظر تعدد الزوجات بين اليهود الأوروبيين). يُنشد النشيد حتى الآن قرب نهاية صلوات يوم الغفران، ومطلعه: ❋ أذكرُ يا الهي ويتملكني الحزن، بينما كل مدينة تبنى وتزدهر، مدينة الرب مهانة (حتى تبلغ) قعر الجحيم ».

من نافلة القول، طبعاً، التذكير أن القدس كانت مزدهرة في القرن العاشر للميلاد. وينبغي في هذا الشأن طرح سؤال بالغ الأهمية حول اليهود المتدينين الذين يرتلون النشيد المذكور في الوقت الحاضر، وفي كل مكان. لماذا تعاني مدينة الرب الآن من المهانة في نظرهم ؟ فقط، لعدم وجود هيكل تقدم فيه قرابين الحيوانات.

وصف ميرون بنفنستي الموقف المعادي لغير اليهود، الجاري تطبيقه في المناطق [المحتلة] (هآرتس ٢٧ أبريل ١٩٩٥) حيث نظر إليه باعتباره * حالة مفهومية من حالات التطهير العرقي، أي إزالة الآخرين من الوعي ». وليس من قبيل المصادفة اقتران ما يدعى *بعملية السلام مع الفلسطينيين بدرجة عالية من التمركز العرقي في المجتمع اليهودي الإسرائيلي، تصل إلى حد العنصرية، والسلوك القبلي، والإخفاق قي التمييز بين الحق الأخلاقي للبقاء والالتزام الأخلاقي من أجل التصرف بطريقة لائقة ».

يستنتج بنفنستي، بصواب كما أعتقد * أن أيديولوجيا الفصل الناجمة عن عملية أوسلو، والاعتبارات الأمنية الناجمة عنها، يستهدفان إضفاء هالة من الاحترام على التطهير العرقي الإسرائيلي». ومن المؤكد أن ينظر الناس إلى استخدامي لهذا المفهوم كنوع من التطرف، مقارنة بالطريقة الأنيقة التي يُستخدم بها لوصف الطرد والمجازر الجماعية. لكنني أعتقد أن التطهير العرقي يمكن أن يكون محدودا في حالات محددة. فإغلاق المناطق أو فرض حظر التجوّل لتطهير الفضاء العام من حضور *الآخرين » يمثلان نماذج ممتازة لمفهوم التطهير العرقي المحدود. ربما كانت أمثلة ما يُمارس في القدس أكثر وضوحا من الضفة الغربية، لكن السياسة واحدة.

أود التأكيد، على الهامش، أن هذا الموقف الضار، لا ينتشر بفضل علماء الآثار، كما يعتقد بعض المثقفين العرب، لأنه يتعارض مع المكتشفات الأركيولوجية. لا يستطيع أحد من علماء الآثار إنكار أن الوقت الذي ازدهرت فيه فلسطين (والقدس أيضاً) قبل القرن التاسع عشر، كان في أواخر العهد الروماني وأوائل العهد البيزنطي (من مطلع القرن الرابع حتى أواسط القرن السادس للميلاد تقريباً) وكان سكانها مسيحيين آنذاك، يتكلم العديد منهم اللغة اليونانية. لعلم الآثار الإسرائيلي مثالبه، لكنه يمارس نفوذا معتدلا على الشوفينيين من اليهود الإسرائيليين.

ورغم ما يتسم به موقف اليهود الإسرائيليين العلمانيين الشوفينيين من سوء، إلا أنه لا يتماشى مع * اليهودية الكلاسيكية » التي تطلب إسرائيل *كدولة يهودية » باسمها *حقوقا تاريخية » حصرية في * القدس الموحدة ». والسبب أن الجوانب المقدسة في الماضي الإسرائيلي، خاصة الهيكل وقرابين الحيوانات، تثير نفور اليهود العلمانيين الشوفينيين، ولا تلقى عملية إحيائها الترحيب من جانبهم. فعلى سبيل المثال، نشرت صحيفة هآرتس الواسعة الانتشار في ملحق عيد الفصح يوم ١٤ أبريل ١٩٩٥ مقالة تصف كيف كان الهيكل عندما كان قيد الاستعمال، وعندما كانت تقدم فيه القرابين الحيوانية. كان عنوان المقالة » دكان الجزار المقدس » (لديّ إحساس أن ظهور مقالة بعنوان كهذا في الصحافة الأميركية كفيل بإثارة فضيحة مدوية، بينما لم يحدث شئ في إسرائيل) وقد وصفت المقالة، استناداً إلى أفضل المراجع التلمودية، منظر ردهات الهيكل خلال فترة مجدها المزعومة، وكيف أثر حرق مئات يومياً (وأحيانا آلاف) من الخراف والثيران المحترقة جزئيا أو بالكامل على

طبيعة الحياة في القدس. لا شك أن الرائحة، بالنسبة لإنسان الأزمنة الحديثة على الأقل، كانت لا تطاق.

بالنسبة للتفاصيل الأخرى، أكتفي بالقول أن المقالة أشارت إلى ضرورة سلخ الحيوان المقدم كقربان، وتقطيعه إلى ستة أجزاء: الأرجل الأربعة، والجزآن العلوي والسفلي من الجسد. كل هذا العمل المقدس كان من نصيب كهنة طاهرين في الردهة الداخلية للهيكل، أمام أنظار الناس. يجري بعد التقطيع والسلخ ما يشبه اليانصيب لتحديد مَن من الكهنة سيفوز بشرف حمل رجل ثور يسيل منها الدم، مثلاً، ورميها في النار المشتعلة فوق المذبح الكبير. ويقوم كهنة آخرون بخبز فطائر من الدقيق والزيت المقدس ويرمونها على المذبح الكبير لتحترق، أو ليأكلها الكهنة في بعض الحالات.

بالمناسبة، هناك حجم هائل من الكتابات على مر القرون، كتابات حكماء حاخاميين، حول الطريقة الصحيحة، مثلاً، لسلخ كبش القربان. ولا تتفق المراجع، دائما، حول هذه المسائل الدينية الهامة. ينفق بعض أنصار غوش إيمونيم كل وقتهم في دراسة هذه الكتابات في مدارس دينية خاصة. ويزاوج الأكثر شهرة بينهم ـ عطيرت كوهنيم، تاج الكهنة ـ بين وظيفة تدريب الكهنة على تقديم قرابين الحيوانات بطرق غير قانونية في أغلب الأحيان، وبين الحصول على أملاك الفلسطينيين في البلدة القديمة في القدس، لتوطين يهود متدينين مكانهم. وربما يعبر الرأي العام العالمي عن موقفه بصورة أفضل لو عرف الهدفين المزدوجين لعطيرت كوهنيم وما يكمن فيهما من مخاطر.

لكن الجهل بالشؤون اليهودية في الماضي والحاضر يعرقل كل مناقشة جدية لأهداف مؤسسات من هذا النوع. ويمكن لهذا الجهل أن يتجاوز كل الحدود. فلم أعثر في الكتابات الهائلة عن زمن يسوع على وصف للهيكل، عندما كان يسوع يعظ هناك. ويمكن أن نعزو مفاهيم فارغة مثل * التقاليد اليهودية ـ المسيحية » إلى هذا النوع من الجهل.

ربما لم أعرض لوظائف الهيكل بصورة كافية، لكن ما ذكرته يكفي لفهم نفور اليهود العلمانيين ـ بصرف النظر عن مدى شوفينيتهم ـ من إحياء تلك الوظائف، ومدى نفورهم بدرجة أكبر من رؤية تلك التفاصيل الملطخة بالدم، وقد أصبحت على شاشات التلفزيون في العالم، ورغم أن اليهود المتدينين يمكن أن يفرحوا بذلك المشهد، إلا أن العلمانيين يستنكفون عنه.

جاء الآن وقت تقديم خلاصة سياسية. لن أقدم في هذا السياق * حلاً »، بل سأكرر ما قاله فرانسيس بيكون، أحد مؤسسي العلم الحديث : * المعرفة سلطة »، ومن يحرم نفسه من المعرفة الصحيحة والمفصلة يحرم نفسه من السلطة، ليس لتغيير الواقع فقط، بل ويحرم نفسه من سلطة فهم واقع بعينه أيضاً. فكل الكلام عن قرارات الأمم المتحدة، مثلاً، لا يغني عن سلطة تقوم على المعرفة المفصلة. يجب أن تكون معرفة المواقف المختلفة لليهود من القدس جزءاً من معرفة الناس الذين تعنيهم هذه المدينة وتعنيهم فلسطين، ويرغبون في رؤية جميع

سكانها وزائريها وقد ازدهروا فعلاً بالمساواة والسلام.